الحلقة (١٠)

ذكرت فيما مضى خصلتان من هاتين الخصال الشاملة
هما خصلتا العدل والإحسان، وذلك انطلاقا من قول الله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى }

{وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى }هذه قيمة ثالثة من القيم، ومما فطر الله عز وجل النفوس عليه أن تميل إلى ذوي القربى، وتحن إليهم، وتتواصل معهم، وهذا سلوك فطري غرسه الله في أنفس عباده،
ولذلك جاء الدين موجهاً للعناية بهذا الجانب، ولكن بالعدل، معنى أن لا تكون محبته لذوي قرباه وبره لهم على حساب عدله وعلى حساب الآخرين، فهناك فرق بين بر ذوي الرحم والأقرباء ووصلهم والإشفاق عليهم والرحمة بهم، وهناك فرق بين تقديمهم بغير حق على غيرهم، فالذي في الآية هو الأمر ببرهم ووصلهم والإشفاق عليهم والرحمة بهم وتقديمهم فيما ينفق من خير إذا كانوا مستحقين لذلك، لذلك لما سمع أبو طلحة رضي الله عنه بقول الله عز وجل { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } قال يا رسول الله إن أحب مالي إلي بيرحاء وقد جعلتها في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم (بخ بخ ضعها في الأقربين) لماذا؟

لأن من طبائع النفوس أنها ترى بحكم القرب أنها أولى بقريبها، فلو فرضنا أن أبا طلحة قسم ماله في الأبعدين وترك أقاربه ولاسيما من كان محتاج منهم، لوجدوا عليه في أنفسهم، وساءت العلاقة بينه وبينهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام لاحظ في حكمه هنا الجمع بين الإحسان وبين إيتاء ذوي القربى، تناغماً مع التوجيه القرآني العظيم، الذي جاء بإيثار ذوي القربى، والتواصل معهم، والإشفاق عليهم، وتقديمهم فيما هم يستحقونه، لا تقديمهم بغير حق.

على الجهة الأخرى هذه هي الأخلاق الإيجابية العامة { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } فجاء بثلاث صفات جامعة للفساد والظلم والسوء وخراب العمران، فهذه الأخلاق الثلاث السيئة الجامعة وأيضاً الفحشاء والمنكر ترجع إلى البغي، **فالبغي** أشمل شيء وإن كان المنكر والفحشاء قد لا يكونان ناتجان عن **البغي**؛ فقد يكونان ناتجان عن **الجهل**، وليس عن البغي، ولو علم من فعلهما ربما لم يفعل بعض الأمور، فقد يقع الإنسان الجاهل في فحشاء، سواء من القول أو الفعل، وقد يقع في منكر من القول أو الفعل جهلاً منه بأن هذا من هذا السبيل.

ولذلك كان والله أعلم هذا التفصيل بين هذه الأخلاق الثلاث، التي جمعت المفاسد كلها، وهكذا الأخلاق في الإسلام هدم وبناء، هدمٌ للسابق من السيئ، وتسويةٌ لأطلاله، وبناءٌ وإقامة للطيب من

القول والفعل، حتى يؤتي ثمرته ويقوم البناء شاهقاً بإذن الله، يؤتي ثمرته في كل حين بإذن ربه، فإذن هذا نموذج للأخلاق العامة الجامعة الشاملة.

ثم هناك تفصيلات عديدة جداً أذكر أمثلة عليها { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا }فهنا توجيه إلى **الوفاء بالعهد، وهي خصلة من الخصائل، وإن كانت حتى هذه الخصلة فيها شمول.**

فإذا تأملنا في الخصائل وجدنا أن حتى ذات الخصلة تجمع بين العموم وبين التفصيل؛ فالوفاء بالعهد ليس عهداً معيناً مثلاً بين الصف المسلم وبين غيره، وإنما أساس العهود ولبها وجذرها الذي تقوم عليه سائر العهود والعقود هو الوفاء بالعهد مع الله عز وجل.

الله سبحانه قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته وحده من مقتضاها الالتزام بأوامره والكف عن نواهيه، وهو سبحانه وتعالى يحب الوفاء بالعهود مهما كان ومع من كان العهد مع مسلم أو كافر

لابد أن يفي الإنسان بوعده وبعهده وعقده، فلدينا عقد و وعد وعهد وكلها لازمة الوفاء، والوفاء بها محبوب عند الله سبحانه وتعالى، فنلاحظ إذن مع التخصيص في مجال العهد هناك تعميماً في أنواع العهود يشمل العهود والعقود كلها.

الثاني مثلا من الأخلاقيات الجزئية **النهي عن الإسراف والتبذير** { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } فهنا نهي عن هذه الصفة السيئة التي هي للأسف من صفات هذا العصر، بسبب هيمنة الروح الرأسمالية، التي لا تعرف حداً في الطمع والجشع، فسمتها التبذير، وذلك من السمات السيئة المذمومة التي حذر الله منها، **وأمر بضدها وهو الاعتدال في الإنفاق، ونهى عن ضدها، وأمر بما يدفع ضررها،** فضد الإسراف والتبذير هو البخل والتقتير.

ولذلك جاء التحذير من الشح والتحذير من البخل { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } والآية الأخرى التي أمرت بما يدفع الطرفين معاً، يدفع الشح والبخل ويدفع الإسراف والتبذير هي: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا } فرد الإنسان إلى العدل مرة أخرى هنا، العدل في الإنفاق فالعدل في الإنفاق منافي للشح والبخل ومنافي للتبذير والإسراف.

الناس يظنون ربما أن التبذير هو بالإنفاق الواسع، فليس التبذير الإنفاق الواسع، **التبذير** هو الإنفاق بغير حق وإن كان شيء قليلا، فإن كان شيئاً قليلاً بغير حق فهو تبذير، وإن كان شيئاً كثيراً بحق فهو محبوباً عند الله عز وجل.

فمثلاً من أنفق في سبيل الله ولو كان كثيراً ليس هذا تبذيراً وليس تفويتاً للمال، لذلك مثلاً في غزوة تبوك التي سمي جيشها جيش العسرة لمّا حث النبي صلى الله عليه وسلم الناس على الإنفاق جاء أبو

بكر بماله كله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (ما تركت لأهلك) قال (تركت لهم الله ورسوله).

ولا يعني هنا أن الإنسان ينفق ما عنده ثم يجلس يتكفف الناس، النبي صلى الله عليه وسلم قَبِل من أبي بكر لأنه كان مليء القلب بالإيمان، وأيضا من جانب الآخر لأنه كان يمتلك المهارة والقدرة على استجلاب المال مرة أخرى واكتساب المال، أمّا لمّا يكون الإنسان لا يقدر على المال وعلى اكتسابه أو إن قلبه معلق بماله أو شيء من هذا فيجب أن لا يكون متهوراً وينفق ما بيده، لذلك لما جاء رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه قطعة من ذهب وقال هذه كل ما أملك، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم مرة ومرتين وثلاث وقال (يعمد أحدكم إلى ما بيده فينفقه ثم يتكفف الناس).

فهذا مذموم حتى لو كان منفقاً في سبيل الله، لأن إنفاقه هنا ليس في محله، ينفق ثم يسأل الناس، هذا أمر غير صحيح، وأمر مناقض لطبيعة العمران، ولِم جاء به الإسلام، فالإسلام لا يمكن أن يتناقض.

فقبول النبي عليه الصلاة والسلام من أبي بكر لأن فيه خصلتان:

الخصلة الأولى عظم التوكل والصدق مع الله سبحانه .

الخصلة الثانية وهي أنه رجلٌ يعرف أساليب التجارة ورجل له وجاهة عند التجار يستطيع أن يشتري بجاهه ثم يعود ويدفع المال من بعد، فهناك ثقة في أبي بكر عند التجار، لأنه تاجر كسائر التجار، لذلك لا تهتز مكانته بإنفاق ما لديه من مال، وعمر رضي الله عنه أنفق شطر ماله في تلك الواقعة، وهكذا.

فإذن : المهم والشاهد أن الإنفاق ليس مجرد الإنفاق وإن كان كثيراً يعني الإسراف، وإنما الإنفاق بغير حق ولو كان ريالا واحدا فهذا إسراف وتبذير إن كان بغير محله.

←والشح والتقتير هو عدم الإنفاق على أوجه الحق :

فمثلاً من لديه أولاد ويقصر في النفقة عليه فهذا شحيح، ومن يلزمه إخراج زكاته ولا يخرجها فهو شحيح وبخيل، بخل بحق الله وهكذا..

فإذن **البخل** حده هو من كان لا ينفق ما تتطلبه أوجه الحق في الإنفاق، لذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على هند بنت عتبة لما جاءته وقالت إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فهل آخذ من ماله وهو لا يدري؟ فقال خذي من ماله ما يكفيك وأولادك، فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على قولها رجل شحيح لماذا؟ لأنه يمنع أولاده مما يستحقون، فأخبر أنه في هذا الحال شحيح وبخيل لماذا؟ لأنه منع وجه حق، وأذن لمن له حق في ماله أن يأخذ منه بقدر كفايته ولا يحيف، فقال: (خذي من ماله بقدر مايكفيك وأولادك)، فالشاهد هنا: أن الله عز وجل أمر بالاعتدال في الإنفاق ونهى عن الطرفين

اللذين يؤديان إلى الوقوع في المحظور.

من الصفات التي جاءت مفردة **الصبر** { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }، والصبر كذلك كما أن العدل جمع بين العموم والخصوص، فكذلك الصبر، الصبر صفة لكنها تسري في كل الأمور الدنيوية و الأخروية، من أراد وجه الله والدار الآخرة يحتاج إلى صبر و مصابرة ومجاهدة لنفسه في ذات الله، وصبراً عن أهوائه، ودفعا لها، وكذلك من أراد أمراً من أمور الدنيا لابد له من الصبر، وبدون الصبر لا يمكن أن يحصل على مراده.

فمثلاً :من أراد أن يقيم التجارة يعلم أنه لن يربح بين عشية وضحاها، فلابد له أن يصير حتى تؤتي تجارته ثمرتها، وكذلك الزارع حين يزرع البذرة ينتظر ويصبر حتى تؤتي ثمرتها، وكذلك الطالب يصبر حتى يؤتى نتيجته في نهاية الفصل، ومن أراد أن يتعلم لغة أو يتعلم مهارة فلابد له من الصبر، وإذا لم يصبر لم يحصل على هذه المهارة وهذه اللغة.

فالصبر صفة تسري في جميع أعمال الإنسان دينها ودنيويها وهي شرط لتحصيل النتائج والثمرات..

كذلك فالله عزوجل يأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} وأن يصدقوا في هذه الأمور،

الصدق يكون مع الله ..

ويكون مع الخلق كذلك، **يكون مع الله** بأن يكون قاصداً وجهه سبحانه وتعالى صادقاً في طلبه، **والصدق مع الخلق** في صدق الحديث بأن لا يكذبهم فيما يتحدث به عن أمور مبينة، والصدق هو المأمور به دائما، وأن يكون الإنسان فاعلاً له بكل الأحوال.

من الأخلاقيات الاجتماعية التي جاء الأمر بها **وفيها عموم**

{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } **البر** شامل لكل عملٍ طيب ولكل عملٍ خير

و{ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} **فالبر** هنا في مقابل **الإثم**،كما المعروف في مقابله المنكر فهي عموميات.

فالبر يشمل كل عمل خير..

و**المعروف** يشمل كل عمل طيب ..

وكذلك **الإثم** يشمل كل عمل سيء..

و**المنكر** يشمل كل عمل مذموم وخارج عن الحق وعن الذوق والأدب.

الثبات على الحق أيضاً قول الله عز وجل { الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } ولما جاء ذلك الرجل إلى رسول الله وسأله قال "قل آمنت بالله ثم استقم"، **الاستقامة بالاستمرار على العمل** من أفضل الأشياء لماذا؟

لأنها تؤتي الثمرة، ولا تؤتى الثمرة إلا بالاستقامة والاستمرار، فلها وجه إلى الصبر، لذلك كانت سبباً لإتيان الثمرة، الإنسان مثلا الذي يستقيم على صلاته تؤتي الصلاة ثمرتها، لو فرضنا أنه يتقطع في أداء صلاته لن تكن الثمرة هكذا، ولذلك جاء امتداح من داوم على عمل وإن كان قليلاً، فبين المصطفى صلى الله عليه وسلم أن "أفضل الأعمال أدومها وإن قل" لماذا؟ لأن المداومة تؤتي الثمرة.

فإذا كان هذا في أمور الدنيا فكذلك في أمور الآخرة، فمن كان مثلاً يجلس يوماً ويستغفر كثيراً ويقرأ القرآن كثيراً ثم يتوقف شهراً مثلاً، أو عشرة أيام، وتتراكم السيئات على قلبه وتؤثر فيه تأثيراً كبيراً، لأن السيئات كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنها أي الصغائر تجتمع على الرجل حتى تهلكه، لماذا؟ لأن كل عمل سيء يؤثر في القلب، فما يزال هذا التأثير مستمراً حتى يصل القلب إلى الانتكاس والطمس ، ولكنه يعمل حسنةً وهكذا فإن المقاومة مستمرة ..

ومن حكمة الله و فضله على المسلمين أن جعل لهم هذه الصلوات الخمس مفرقة في الأوقات، ثلاث منها في النهار، واثنتان في الليل، ويبدأ الإنسان بها في مطلع نهاره، ويختم بها يومه، كأنها حسنات تذهب سيئاته، كلما انغمس أو تأثر أو تدنس عاد في الصلاة وطهرته، وهكذا ولذلك مثلها عليه الصلاة والسلام بنهر جارٍ قال :

(أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه في اليوم خمس مرات هل يبقى من درنة شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا) فالصلوات الخمس تعمل لك اغتسال في كل مرة تطهرك، فجريان النهر بيان الإيمان واستمراره ، والصلوات انغماسا في هذا النهر، والماء هو لب الإيمان هو مظهر الإيمان هو شعار الإيمان وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ..

من ذلك أيضاً **السكينة، والتوبة، والحلم، والرفق، وترك الفضول** وهذا من الأمور المهمة، ترك الفضول يفترض في المسلم أن لا يشغل نفسه بما زاد، فكثير من أمراض القلوب تأتي من الفضول، فضول النظر وفضول السمع وفضول الطعام.